اليعقوبي

مقالات اليونانيين

وكانت ملوك اليونانيين ومن ملك بعدهم من الروم مختلفة، فطائفة منهم على دين الصابئة وكانوا يسمون الحنفاء، وهم الذين يقرون ويعترفون بخالق ويزعمون أن لهم نبياً مثل: أوراني وعابيديمون وهرمس وهو المثلث بالنعمة، ويقال: إنه إدريس النبي، وهو أول من خط بالقلم وعلم علم النجوم، ويقولون في الخالق عز وجل على قول هرمس إما أن يعقل الله فعسر وأن ينطق به فلا يمكن، وأن الله علة العلل المكون للعالم جملة واحدة.

وطائفة منهم أصحاب زينون وهم السوفسطائية، وتفسير هذا الاسم باليونانية المغالطة وبالعربية التناقضية، يقولون: لا علم ولا معلوم، واحتجوا باختلاف الناس وانتصاف بعضهم من بعض. وقالوا: نظرنا في قول الناس المختلفين، فوجدناها مختلفة غير متفقة وأصبناهم في اختلافهم مجتمعين على أن الحق مؤتلف غير متخلف، وأن الباطل مختلف غير مؤتلف، وكان في اجتماعهم شاهد لهم أنهم لم يعلموا بالصواب، فلما أقروا بهذا لم يعد للحق موضع يطمع في إصابته إلا في الخاصة منهم. فعلمنا أن ذلك لا يوجد إلا بأحد وجهين: إما بالتسليم للمدعي وإما بالكشف لدعواه، فنظرنا في الدعوى فأصبنا بما يعمهم فلم نجز تصديقهم لخلتين: إحداهما أن يكذب بعضهم بعضاً والأخرى إجماعهم على أنهم لم يعلموا بالصواب فلم يبق إلا كشف الدعوى

ففعلنا فأصبناهم أكل تكافئ وتجار بدور الغلبة عليهم جميعاً بالاستواء بينهم تقوى هذه مرة ومخالفتها أخرى، فلم نصب عند طائفة منهم فضلاً ولا تشارك فيه ولا حجة ولا تساوي بها ولا تجاري فيها. فلما أعوز وجود الحق في عامتها وخاصتها بالدعوى والمناظرة لم يبق للعلم موضع يوجد فيه ولا للحق مذهب يصاب منه. فقضينا أنه لا علم ولا معرفة لأن الشيء إذا كان ثابتاً لا محالة فلا بد من الإحاطة في الإنفاق أو في الاختلاف، فلا يذكر ذاكر وهو غائب فقال فلان غائب فأصابه فلو قال هو أو غيره فلان حاضر وليس بحاضر فخرج من الصدق، ثم خالفه مخالف فقال: بل هو غائب فكان أحدهما صادقاً لا محالة لانه لا يعدو إذا كان الشيء ثابتاً حقاً أن يكون حاضراً أو غائباً، فإذا لم يكن شيئاً فكلاهما كاذب فيما قال من أنه حاضر أو غائب لأن الحاضر شيء والغائب شيء فإن لم يكن شيئاً فليس بحاضر ولا غائب. واحتجوا بنحو [هذا. . .] آخر فقالوا: أن كانت الاشياء كلها يدرك بالعلم والعلم بالعلم فإلى نهاية أو إلى لا نهاية فإن تناهى فإلى غير معلوم، وما لم يكن معلوماً فهو بمجهول فأنى تعلم الأشياء بجهول، فإن لم تتناه ولم تكن لذلك غاية فلا إحاطة به وما لم يحط به فمجهول أيضاً فكان الوجهان في هذا القياس مجهولين غير معلومين فأنى يعلم شيء مجهول دون أن يعلم جميع الأشياء وذلك أبعد، وشققوا في هذين النوعين وكثر سعيهم وعظمت مؤنتهم.

وقالت طائفة تسمى الدهرية: لا دين ولا رب ولا رسول ولا كتاب ولا معاد ولا جزاء بخير ولا بشر ولا ابتداء لشيء ولا انقضاء له ولا حدوث ولا عطب، وإنما حدوثه ما سمي حدثاً تركيبه بعد الافتراق، وعطبه وتفريقه بعد الاجتماع وجميع الوجهين في الحقيقة حضور غائب ومغيب حاضر. وإنما سميت الدهرية

لزعمها أن الإنسان لم يزل ولن يزول وأن الدهر دائر لا أول له ولا آخر، واحتجوا فيما ادعوا بأن قالوا : إنما يعرف في وجود الشيء وفقده حالان لا ثالث لهما : حال الشيء فيها موجود فأنى يحدث ما قد كان وُجد، وحال لا شيء فيها فأنى يكون الشيء في حال لا تشبيه لها وذلك أبعد، وكذلك القول في المدعي من العطب لا يعرف غير حالين : حال الشي فيها قائم فمحال قول من ادعى العطب للشيء في حال كونه وقيامه، وحال لا شيء فيها فأنى يكون العطب الأدنى وذلك محال، فإن أقر مخالفونا بصدقنا دخلوا في قولنا ونقضوا قولهم، فإن أنكروا قولنا ادعوا حالاً ثالثة لا عدم فيها ولا وجود فذلك أقبح الثلاثة حالة.

وقالت فرقة منهم : إن أصل الأشياء في الأزلية حبة كانت -فإنفلقت- فبدا منها العالم على ما ترى من اختلافه في ألوانه وإحساسه، وزعم بعضهم أنه غير مختلف في معانيه وإنما تختلف معانيه من جهة إحساسه، وأنكر بعضهم ذلك وأثبتوا له اختلافاً في معانيه وتحقيقه. وقالت المنكرة لتحقيق الاختلاف : الاشياء إنما تختلف باختلاف الإحساس لها وأنه لاحقيقة لشيء منها تبين بها دون غيرها وادعو من الدلالات في ذلك أن أهل المرض الحادث من الصفراء مثل أصحاب اليرقان إذا ذاق أحد منهم العسل وجده مراً وأهل السلامة من هذا الداء يجدونه حلواً فإن الخفاش يغشيه ضوء النهار ويذكي بصره الليل. فإن كان النور تزيد الأبصار نوراً والظلمة مغشية لها وجب أن تكون نور النهار الظلمة للخفاش وغيرها تغشى بصره النار وقد يوجد ذلك في بعض الناس وغيرهم من الحيوان والطير وغيره، وإن الليل إذا كان مذكياً للأبصار على ما وصفنا فليلها نور كما أن النهار نور لمن خالفها والليلة ظلمة لها، فإن قلتم : إن ذلك لآفة

دخلت على هذه الأصناف قلنا لكم : عند من خالفهم أو عند من وافقهم . فإن قلتم : عند من خالفهم، قلنا : بل الآفة دخلت على من وافقهم فإن قلتم : عند من وافقهم قلنا : بل الآفة دخلت على من خالفهم عندهم فلا فضل لأحد الصنفين على أحد . وقالوا : ألا ترون الكاتب يكتب الكتاب عدلاً مستقيماً فيراه كذلك من قبل وجهه فإن نظر إليه من خلفه رآه بخلاف ما كان يعرف، وإن ازور عنه معوجاً أو خالفه رآه مخالفاً كما تكتب الالف في صورة تميز من جميع الحروف فإذا استقبلتها رأيتها ألفاً وإذا استدبرتها رأيتها كالباء، وإذا انحرفت عنها رأيتها كالنون أو كالباء وأن الغائب عن موضعه حاضر موضعاً آخر وكذلك القول في الألوان والأصوات والطعوم والأعيان والملابس كما ترى الشخص عن قرب كبيراً وصغيراً من بعد كلما قرب الداني منه ازداد كبراً وكلما بعد منه ازداد صغراً في عينيه . وكذلك الصوت يسمع من قريب قوياً ومن بعيد خفياً وكذلك الطعم تذوق الشيء قليلاً فتجده قليل الحلاوة فإذا زدت منه طعمه [. . .] وكذلك اللمس تحس الشيء قليلاً فتجده فاتراً وتلمسه شديداً فتجده حاراً وترى الصورة من قريب ثابتة مختلفة فيزداد الرأي لها بعداً فيرى أنها مستوية غير مختلفة . وزعموا أن جميع الأشياء تدور على التكافؤ والتجاري وكادوا أن يحلفوا بالسوفسطائية .

وقالت طائفة أخرى : إن الأشياء فروع لأصول أربعة لم تزل ولا تزول فولدت وظهر العالم منها وهي الأفراد السوادج : الحر والبرد والرطوبة واليبس تنبت بأنفسها لا باعتماد ولا إرادة ولا مشيئة . وقالت طائفة أخرى : إن الأصول أربعة وهي أمهات ما في العالم ومعها خامس لم يزل ولا يزول يدبرها ويؤلف بينها بإرادة ومشيئة وحكمة ويؤلف بين زوجاتها ويتولد نتائجها عنه لا يمنع أضدادها من القرب بعضها من بعض، وهو العلم .

وقالت طائفة وهم أصحاب الجوهر، وهم الأرسطاطاليسية: إن الأشياء شيئان جوهر وعرض، والجوهر ينقسم قسمين: حي ولا حي وحدُّة القائم بنفسه وافتراقه في الخاصة لا في الحد والعرض تسعة، فمنها الكمية وهو العدد وصورها أربع: الكيل والمساحة والوزن والقول، ثم الكيفية وصورها ثمان: الكون والفساد والهيئة والحيلة والقوة والضعف والإلف و المألوف، ثم الإضافة على الوقت، يعني بالوقت الزمان، وصور الزمان ثلاث: الماضي والمستقبل والدائم، ثم أنى وهي الواقعة على المكان الست جهات يعني امام وخلف وأعلى وأسفل ويمين ويسار، ثم الجدة وهي الملك وصورة الملك قسمان: إما خارج وإما داخل، فمعنى خارج مثل: المملوك والدار والأثاث ونحوه، ومعنى داخل مثل: العلم والحكمة، ثم النصبة ومعنى النصبة هيئة الشيء كقول القائل: فلان قائم وفلان قاعد وفلان ذاهب وفلان جاء، ثم الفاعل فهو قسمان: إما أن يفعل بالاختيار واما أن يفعل بالطبع، فالمختار مثل الحي: الباقي الآكل الشارب والفاعل بالطبع كحركة العناصر الأربعة مثل النار تسمو من الوسط إلى العلو تكرر وإن كان دون النار وكالأرض من العلو إلى الوسط إلى مركزها الأخص بها والماء من العلو إلى دون الأرض. ثم المنفعل وهو القابل للتأثير الفاعل فيه حال طينته المحتملة لأن يديرها ويربعها في جميع الأشكال فهذه مقالات اليونانيين ومن تلاهم من الروم ومذاهب متكلميهم وفلاسفتهم وحكمائهم وأهل النظر فيهم.

(اليعقوبي - التاريخ، ج ١ ص١٦٦-١٧١)

أديان العرب

وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل والانتقال إلى البلدان والانتجاعات. فكانت قريش دعامة ولد معد بن عدنان على بعض دين إبراهيم يحجون البيت ويقيمون المناسك ويقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ويعاقبون على الجرائم، فلم يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة البيت. وكان آخر من قام بولاية البيت الحرام من ولد معد ثعلبة بن إياد بن نزار بن معد، فلما خرجت إياد وليت خزاعة حجابة البيت فغيروا ما كان عليه الأمر في المناسك حتى كانوا يفيضون من عرفات قبل الغروب ومن جمع بعد أن تطلع الشمس. وخرج عمرو بن لحي واسم لحي ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، إلى أرض الشام وبها قوم من العمالقة يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأوثان التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها نستنصرها فننصر ونستقي بها فنسقى، فقال: ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذي تفد إليه العرب، فأعطوه صنماً يقال له: هُبَل، فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة فكان أول صنم وضع بمكة. ثم وضعوا به إساف ونائلة كل واحد منهما على ركن من أركان البيت، فكان الطائف إذا طاف بدأ بإساف فقبله وختم به. ونصبوا على الصفا صنماً يقال له: مجاور الريح وعلى المروة صنماً يقال له مطعم الطير، فكانت العرب إذا حجت البيت فرأت تلك الأصنام سألت قريشاً وخزاعة فيقولون: نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى. فلما رأت العرب ذلك اتخذت أصناماً فجعلت كل قبيلة لها صنماً يصلون له تقرباً إلى الله فيما يقولون، فكان لكعب بن دبرة وأحياء قضاعة «وُد» منصوباً بدومة الجندل بجرش، وكان لحمير وهمدان «نسر»

منصوباً بصنعاء، وكان لكنانة «سُواع» ، وكان لغطفإن «العُزى»، وكان لهند بجيلة وخثعم «ذو الخلصة»، وكان لطيء «الفُلس» منصوباً بالحبس، وكان لربيعة وإياد «ذو الكعباب» بسنداد من أرض العراق، وكان لثقيف «اللات» منصوباً بالطائف، وكان للأوس والخزرج «مناة» منصوباً بفدك مما يلي ساحل البحر، وكان لدوس صنم يقال له: «ذو الكفين»، ولبني بكر بن كنانة صنم يقال له: «سعد»، وكان لقوم من عُذرة صنم يقال له: «شمس»، وكان للأزد صنم يقال له «رئام»، فكانت العرب إذا أرادت حج البيت الحرام وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلوا عنده ثم تلبوا حتى تقدموا مكة فكانت تلبياتهم مختلفة، وكانت تلبية قريش: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك تملكه وما ملك، وكان تلبية كنانة: لبيلك اللهم لبيك اليوم [يوم] التعريف يوم الدعاء والوقوف، وكانت تلبية بني أسد: لبيك اللهم لبيك يا رب أقبلت بنو أسد أهل التواني والوفاء والجلد إليك، وكانت تلبية بني تميم : لبيك اللهم لبيك لبيك عن تميم قد تراها قد أخلقت أثوابها وأثواب من ورائها وأخلصت لربها دعاءها، وكانت تلبية قيس بن عيلان: لبيك اللهم لبيك لبيك أنت الرحمن اتتك قيس عيلان راجلها والركبان، وكان تلبية ثقيف: لبيك اللهم إن ثقيفاً قد أتوك وأخلفوا المال وقد رجوك، وكانت تلبية هذيل: لبيك عن هذيل قد أوجفوا بليل في إبل وخيل، وكان تلبية ربيعة: لبيك ربنا لبيك لبيك إن قصدنا إليك، وبعضهم يقول: لبيك عن ربيعة سامعة لربها مطيعة، وكانت حمير وهمدان يقولون: لبيك عن حمير وهمدان والحليفين من حاشد وألهان، وكانت تلبية الأزد: لبيك رب الأرباب تعلم فصل الخطاب، لملك كل مثاب، وكانت تلبية مذحج: لبيك رب الشعرى ورب اللات والعزى، وكانت تلبية كندة وحضرموت: لبيك لا شريك لك

تملكه أو تهلكه أنت حكيم فاتركه، وكانت تلبية غسان: لبيك رب غسان راجلها والفرسان، وكانت تلبية بجيلة: لبيك عن بجيلة في بارق ومخيلة، وكانت تلبية قضاعة: لبيك عن قضاعة لربها دفاعة سمعاً له وطاعة، وكانت تلبية جذام لبيك عن جذام ذي النهى والأحلام، وكانت تلبية عك والأشعريين:

تحج للرحمن بيتا عجبا ومستتراً مضبباً محجبا

وكان العرب في أديانهم على صنفين الحمس والحلة، فأما الحمس فقريش منها، وأما الحلة فخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً، وكان يشددون على أنفسهم في دينهم، فإذا نسكوا لم يسلؤوا سمناً ولم يدخروا لبناً ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتى يعافه ولم يجزوا شعراً ولا ظفراً ولم يدهنوا ولم يمسوا النار ولا الطيب، ولم يأكلوا لحماً ولم يلبسوا في حجهم وبراً ولا صوفاً ولا شعرى ويلبسون جديداً ويطوفون بالبيت في نعالهم لا يطؤون أرض المسجد تعظيماً له ولايدخلون البيوت من أبوابها ولا يخرجون إلى عرفات ويلزمون مزدلفة ويسكنون في حال نسكهم قباب الأدم. وكان الحلة وهي تميم وضبة ومزينة والرباب وعُكل وثور وقيس عيلان كلها ما خلا عدوان وثقيف وعامر ابن صعصعة وربيعة بن نزار كلها وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد لا يحرمون الصيد في النسك ويلبسون كل الثياب ويسلئون السمن ولا يدخلون من باب بيت ولا دار ولا يؤويهم ما داموا محرمين، وكانو يدهنون ويتطيبون ويأكلون اللحم فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم نزعوا ثيابهم التي كانت عليهم، فإن قدروا على أن يلبسوا ثياب الحمس كراء أو عارية فعلوا وإلا طافوا بالبيت عراة،

وكانوا لا يشترون في حجهم ولا يبيعون، فهاتان الشريعتان اللتان كانت العرب عليهما.

ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود وفارقوا هذا الدين، ودخل آخرون في النصرانية وتزندق منهم قوم فقالوا بالثنوية. فأما من تهود منهم فاليمن بأسرها، كان تبع حمل حبرين من أحبار اليهود إلى اليمن فأبطل الأوثان وتهود من باليمن وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظه والنضير، وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام. وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العُزى منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى، وورقة بن نوفل بن أسد، ومن بني تميم بنو امرئ القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة بنو تغلب ومن اليمن طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم، وتزندق حجر ابن عمرو الكندي.

(اليعقوبي - التاريخ، ج١ ص ٢٩٤-٢٩٩)

خبر سقيفة بني ساعدة

واجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يوم توفي رسول الله ﷺ [. . .] يغسل، فأجلست سعد بن عبادة الخزرجي وعصبته بعصابة وثنت له وسادة، وبلغ أبا بكر وعمر والمهاجرين فأتوا مسرعين فنحوا الناس عن سعد، وأقبل أبوبكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالوا: يا معشر الأنصار منا رسول الله فنحن أحق بمقامه، وقالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: منا الأمراء وأنتم الوزراء، فقام ثابت بن قيس بن شماس وهو خطيب

الأنصار فتكلم وذكر فضلهم، فقال أبو بكر: ما ندفعكم عن الفضل وما ذكرتم من الفضل فأنتم له أهل، ولكن قريشاً أولى بمحمد منكم، وهذا عمر بن الخطاب الذي قال رسول الله أعز الدين به، وهذا أبو عبيدة بن الجراح الذي قال رسول الله أمين هذه الأمة فبايعوا أيهما شئتم، فأبيا وقالوا: والله ما كنا لنتقدمك وأنت صاحب رسول الله وثاني اثنين، فضرب أبو عبيدة علي يد أبي بكر وثنى عمر ثم بايع من كان معه من قريش، ثم نادى أبو عبيدة: يا معشر الأنصار إنكم كنتم أول من نصر فلا تكونوا أول من غير وبدل. وقام عبدالرحمن بن عوف تكلم وقال: يا معشر الأنصار إنكم وإن كنتم على فضل فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي. وقام المنذر بن الأرقم فقال: ما ندفع فضل من ذكرت وإن فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد - يعني علي بن أبي طالب- فوثب بشير بن سعد من الخزرج فكان أول من بايعه من الأنصار وأسيد بن حضير الخزرجي وبايع الناس حتى جعل الرجل يطفر وسادة سعد بن عبادة وحتى وطئوا سعداً، وقال عمر اقتلوا سعداً قتل الله سعداً. وجاء البراء بن عازب فضرب الباب على بني هاشم وقال: يا معشر بني هاشم بويع أبو بكر، فقال بعضهم: ما كان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه ونحن أولى بمحمد، فقال العباس: فعلوها ورب الكعبة، وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون في علي عليه السلام. فلما خرجوا من الدار قام الفضل بن العباس وكان لسان قريش فقال: يا معشر قريش إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه ونحن أهلها دونكم وصاحبنا أولى بها منكم، وقام عتبة بن أبي لهب فقال:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف ... عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن

عن أول الناس إيماناً وسابقة ... وأعلم الناس بالقرآن والسنن

وآخر الناس عهـــداً بالنبي ومـن جبريل عون له في الغسل والكفن

من فيه ما فيهـم لا يمتـــــرون به وليس في القوم ما فيه من الحسـن

فبعث إليه علي (عليه السلام) فنهاه.

وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي بن أبي طالب منهم: العباس بن عبدالمطلب و الفضل بن العباس، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب، فأرسل أبو بكر إلى عمر ابن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة فقال: ما الرأي؟ قالوا: الرأي أن تلقى العباس بن عبدالمطلب فتجعل له في هذا الأمر نصيباً يكون له ولعقبه من بعده فتقطعون به ناحية علي بن أبي طالب حجة لكم على علي إذا مال معكم، فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة حتى دخلوا على العباس ليلاً، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله بعث محمداً نبياً وللمؤمنين ولياً فمن عليهم بكونه بين أظهرهم حتى اختار له ما عنده فخلى على الناس أموراً ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم مشفقين فاختاروني عليهم والياً ولأمورهم راعياً فوليت ذلك وما أخاف بعون الله وتسديده وهناً ولا حيرة ولا جبناً وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وما أنفك يبلغني عن طالب يقول الخلاف على عامة المسلمين يتخذكم لجأ فتكون حصنه المنيع وخطبه البديع، فإما دخلتم مع الناس فيما اجتمعوا وإما صرفتموهم عما مالوا إليه، ولقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً يكون لك ويكون لمن بعدك من عقبك إذ كنت عم رسول الله وإن كان الناس قد رأوا

مكانك ومكان صاحبك . . . على رسلكم بني هاشم فإن رسول الله منا ومنكم .

فقال عمر بن الخطاب : أي والله وأخرى إنا لم نأتكم لحاجة إليكم ولكن كرهاً أن يكون الطعن في ما اجتمع عليه منكم فيتفاقم الخطب بكم وبهم فانظروا لأنفسكم .

فحمد العباس الله وأثنى عليه وقال : إن الله بعث محمداً كما وصفت نبياً وللمؤمنين ولياً ممن على أمته به حتى قبضه الله إليه واختار له ما عنده فخلى على المسلمين أمورهم ليختاروا لأنفسهم مصيبين الحق لا مائلين بزيغ الهوى، فإن كنت برسول الله فحقاً أخذت وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم فما تقدمنا في أمرك فرطاً ولا حللنا وسطاً ولا برحنا سخطاً، وإن كان هذا الأمر إنما وجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين، ما أبعد قولك من أنهم طعنوا عليك من قولك أنهم اختاروك ومالوا إليك وما أبعد تسميتك خليفة رسول الله من قولك خلى على الناس أمورهم ليختاروا فاختاروك، فأما ما قلت إنك تجعله لي فإن كان حقاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن كان لنا فلم ترض ببعضه دون بعض، وعلى رسلك فإن رسول الله شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها . فخرجوا من عنده وكان فيمن تخلف عن بيعة أبي بكر سفيان بن حرب وقال : أرضيتم يا بني عبد مناف أن يلي هذا الأمر عليكم غيركم، وقال لعلي بن أبي طالب : امدد يدك أبايعك وعلي معه قصي فقال :

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ... ولاسيما تيم بن مرة أو عدي

فما الأمر إلا فيكم وإليكم ... وليس لها إلا أبو حسن علي

أبا حسن فاشدد بها كف حـــازم فإنـك بالأمـر الـذي يـرتجى ملي

وإن امـرئ يرمـي قصيـــاً وراءه عزيز الحمى والناس من غالب قصي

وكان خالد بن سعيد غائباً فأتى علياً فقال: هلم نبايعك، فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك. واجتمع جماعة إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) يدعونه إلى البيعة له، فقال لهم: اغدوا علي محلقين الرؤوس فلم يغد عليه إلا ثلاثة نفر.

وأقام القوم أياماً ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع، ولم يبايع علي (عليه السلام) إلا بعد ستة أشهر، وقيل: أربعين يوماً.

(اليعقوبي - التاريخ، النجف، ج٢ ص ١٠٢-١٠٤)

أيام المهدي

وقرأ المهدي وصية أبي جعفر وكان نسختها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد عبدالله أمير المؤمنين، إلى المهدي محمد بن أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين حين أسند وصيته إليه بعده واستخلفه على الرعية من المسلمين وأهل الذمة وحرم الله وخزائنه وأرضه التي يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد والعمل بطاعته في العباد... وليتسع إنصافك وينبسط عدلك ويؤمن ظلمك وواس بين الرعية في الاحتكام واطلب بجهدك رضي الرحمن، وأهل الدين فليكونوا أعضاءك، واعط حظ المسلمين من أموالهم، ووفر لهم فيأهم، وتابع أعطياتهم عليهم، وعجل بنفقاتهم إليهم سنة سنة وشهراً شهراً، وعليك بعمارة البلاد بتخفيف

الخراج، واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجملية، وليكن أهم أمورك إليك تحفظ (لعله: حفظ) أطرافك وسد ثغورك وإكمال بعوثك...».

وأمره بعد ذلك بأمور يطول الكتاب بها فاقتصرنا على صدر الوصية، وأظهر جزعاً شديداً على المنصور. ووردت إليه الوفود يعزونه فجعل كل قوم يقولون: بما أمكنهم حتى دخل شبيب بن شيبة فعزاه ثم قال: يا أمير المؤمنين إن الله لم يرض لك إذ قسم لك الدنيا إلا باسناها وأرفعها فلا ترض لنفسك من الآخرة إلا بمثل ما رضي الله لك من الدنيا، وعليك بتقوى الله، فإنها عليكم نزلت، ومنكم أخذت، وإليكم ردت.

وقدم الربيع مستهل المحرم ومعه مفاتيح الخزائن، فجلس المهدي للناس في النصف من المحرم. وأمر الربيع فأحضر دفتر القبوض ووجه إلى كل من كان أبو جعفر قبض شيئاً من ماله فأحضره وأقبل عليهم فقال: أن أمير المؤمنين المنصور كان بما حمله الله من أموركم وقلده من رعايتكم يدبر عليكم كما يدبر الوالد البر على ولده، وكان أنظر لكم منكم لأنفسكم وكان يحفظ عليكم ما لا تحفظون على أنفسكم فحرس لكم من أموالكم ما لم يأمن من ذهابه، وهذه أموالكم مبارك لكم فيها فحللوا أمير المؤمنين من إبطائها عنكم، ثم أمر بإخراج من في المحابس من الطالبيين وغيرهم من سائر الناس فأطلقهم وأمر لهم بجوائز وصلات وأرزاق دارة، ثم أطلق سائر الناس ولم يطلق أحداً إلا وكساه ووصله على قدره.

وخلع المهدي عيسى بن موسى من ولاية العهد واشترى ذلك بعشرة آلاف ألف درهم وبايع لابنه موسى بولاية العهد من بعده سنة ١٥٩هـ، ثم بايع لابنه هارون بولاية العهد بعد موسى.

وحج المهدي سنة ١٦٠هـ فجرد الكعبة وكساها القباطي والخز والديباج وطلى جدرانها بالمسك والعنبر من أعلاها إلى أسفلها. وكانت الكعبة في جانب المسجد لم تكن متوسطة فهدم حيطان المسجد الحرام وزاد فيه زيادات واشترى من الناس دورهم ومنازلهم وأحضر الصناع والمهندسين من كل بلد، وكتب إلى واضح مولاه وعامله على مصر في حمل الأموال إلى مكة واتخاذ الآلات وما يحتاج إليه من الذهب والفسيفساء وسلاسل القناديل والخروج بها حتى يسلمها إلى يقطين بن موسى ومحمد بن عبدالرحمن، وصيرت الكعبة في الوسط وزاد مما يلي الكعبة إلى باب الصفا تسعين ذراعاً ومن الكعبة إلى باب بني شيبة ستين ذراعاً، وصير ذرعه مكسراً مائة ألف ذراع وعشرين ألف ذراع، وطول المسجد من باب بني جمح إلى باب بني هاشم إلى عند العلم الأخضر أربعمائة ذراع وأربع أذرع، وفيه من الأساطين مما حمل في البحر من مصر أربعمائة وأربع وثمانون أسطوانة طول كل أسطوانة عشر أذرع، وصير فيه أربعمائة طاق وثمانية وتسعين طاقاً، وجعل في المسجد الأبواب ثلاثة وعشرين باباً، فكان المهدي آخر من زاد في المسجد الحرام، وبنى العلمين الذين يسعى بينهما وبين الصفا والمروة وبينهما من الذرع مائة واثنتا عشرة ذراعاً فصار بين الصفا والمروة لما أخرج المسجد إلى الموضع الذي هو فيه الساعة سبعمائة وأربع وخمسون ذراعاً. ووسع المسجد الذي لرسول الله ﷺ وزاد فيه مثل ما كان عليه وحمل إليه الرخام والفسيفساء والذهب ورفع سقفه وألبس خارج القبر الرخام.

وبنى الثغر المعروف بالحدث سنة ١٦٣هـ وكان فيه دفع للعدو وتسديد، وذلك أن الروم أغاروا على مرعش فسبوا وقتلوا خلقاً، فلما بنى المهدي الحدث عظم ارتفاق أهل الثغور به. وأغزى هارون ابنه في هذه السنة ومعه جماعة من القواد والجند وخرج يشيعه إلى جيحان ففتح هارون في تلك الغزاة سمالو وعدة حصون. ثم أغزاه سنة ١٦٤هـ إلى القسطنطينية فطلب منه الروم الصلح فصالحهم وانصرف.

واضطربت خراسان وتحركت اسغد وفرغانة وخرج يوسف البرم وهو رجل من موالي ثقيف ببخارا يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاتبعه على ذلك خلق من الناس فحارب السلطان. وخرج أحمد بن أسد إلى فرغانة ففتح حتى وصل إلى كاسان وهي المدينة التي ينزلها الملك، وكان يزيد بن مزيد الشيباني يحارب يحيى الشاري فكتب إليه المهدي أن ينكفئ فيمن معه إلى يوسف البرم فلقيه فكانت بينهما وقعات عدة، ثم هزمه يزيد فرفع علماً أحمر وآمن من يصير تحته فصار أصحاب يوسف كلهم تحته وأسر يوسف فحمله إلى المهدي فلما دخل عليه كلمه بكلام غليظ فشتمه المهدي، فقال: لبئس ما أدبك أهلك، فضرب عنقه وصلبه.

فكتب إلى عمر بن العلاء وكان بطبرستان أن يصير إلى جرجان فيخرج من بها من المحمرة بعد أن يدعوهم إلى الطاعة. فصار إلى جرجان ففرق جمع المحمرة وقتل عبد القاهر وفض الجمع.

ووجه المهدي رسلاً إلى الملوك يدعوهم إلى الطاعة فدخل أكثرهم في طاعته فكان منهم ملك كابل شاه يقال له (حنحل)، وملك طبرستان (الأصبهبذ) وملك السغد (الإخشيد)، وملك طخارستان (شروين)، وملك باميان (الشير)، وملك فرغانة (فريران)، وملك أشروسنه (أفشين)، وملك الخرلخية (جيغوية)، وملك سجستان (رتبيل)، وملك الترك (طرخان)، وملك التبت (جهورن)، وملك السند (الراي)، وملك الصين (بغبور)، وملك الهند (وابراح)، وهو فور وملك التغزغز (خاقان).

وأمر المهدي بجباية أسواق بغداد وجعل عليها الآجرة، وجعل (لعله: وكل) سعيد الحرشي بذلك فكان أول ما جبيت أسواق بغداد.

وكان المهدي قد ألح في طلب الزنادقة وقتلهم حتى قتل خلقاً كثيراً، فبلغه أن صالح بن أبي عبيدالله كاتبه زنديق فأحضره. فلما صح عنده أمره استتابه فقال: لا رغبة عما أنا عليه ولا حاجة في غيره، فأمر المهدي أبا عبيد الله أباه أن يقوم فيضرب عنقه فقام فأخذ السيف ثم دنا من ابنه فلما رفعه رجع فقال: يا أمير المؤمنين إني قمت سامعاً مطيعاً وإنه أدركني ما يدرك الرجل في ولده فأمره فجلس، ثم أمر بضرب عنقه.

(اليعقوب - التاريخ، النجف ج ٣ ص ١٢٥-١٣٣)

أيام أحمد المعتمد على الله

وبويع أحمد المعتمد على الله بن جعفر المتوكل في اليوم الذي قتل فيه المهتدي وهو يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦هـ، ومن شهور العجم حزيران، وكانت الشمس يومئذ في الأسد سبعاً وعشرين درجة

وزحل في القوس خمساً وعشرين درجة وثلاثين دقيقة راجعاً، والمريخ في الأسد ثلاث درج وأربعين دقيقة.

وزحف الخارج بالبصرة المدعي إلى آل أبي طالب، واسمه علي بن محمد (يقصد صاحب الزنج) إلى الأبلة فنهبها وأخربها وأحرقها بالنار وتوجه إليه سعيد بن صالح فواقعه بنهر أبي الخصيب.

ووردت كتب المعتمد إلى أحمد بن طولون عامل مصر يأمره برد المال الخراج إلى أحمد بن محمد بن المدبر وكان محبوساً في يده ومحمد بن هلال يتولى الخراج، فأخرج يوم السبت لسبع ليال بقين من ذي القعدة سنة ٢٥٦هـ وتولى الخراج وكان حبسه تسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً.

وفي هذه السنة تنازع قوم من بني هلال وقوم من أهل مكة في الموقف بعرفات، فقتل قوم من هؤلاء وقوم من هؤلاء وكان صاحب الموسم الحسين بن إسماعيل الطاهري فأقام الحج للناس أحمد بن إسماعيل بن يعقوب الملقب (كعب البقر).

وتوفي بايكباك التركي فصير المعتمد ما كان إليه من أعمال مصر وغيرها إلى يارجوخ التركي وكتب يارجوخ التركي إلى أحمد بن طولون التركي عامل مصر بإقراره على ما كان يتولى. وولى المعتمد محمد بن هرثمة بن أعين برقة، فقدم الفسطاط في شهر ربيع الآخر سنة ٢٥٧هـ ونفذ إلى برقة.

ووجه المعتمد بالحسين الخادم المعروف بـ(عرق الموت) إلى عيسى بن شيخ، وقد تغلب على فلسطين، بأمان على نفسه وماله وولده والصفح عما كان منه وتوليته أرمينية، ففعل ذلك وشخص من البلد في جمادى الآخرة سنة ٢٥٧هـ،

وسلم ما كان في يده إلى أماجور التركي ولم يرد من الأموال درهماً واحداً. وكانت في السماء نار عظيمة أخذت من المشرق إلى الغرب ثم أجلت، وتلتها هزة شديدة وزلزلة، وكان ذلك مع طلوع الفجر لثمان بقين من رجب ومن شهور العجم في حزبران.

وحمل أحمد بن طولون ما كان حاصلاً في بيت المال بمصر إلى أمير المؤمنين المعتمد فكان مبلغه ألفي ألف ومائة ألف درهم، وقاد الخيل وحمل الطراز والخيش والشمع ووازنه بنفسه حتى يسلمه إلى أماجور التركي وأشهد به عليه وأنصرف إلى الفسطاط.

وفي هذه السنة وجه أحمد بن طولون رجلاً من الأتراك يقال له (ماطعان) في ألف فارس مع حاج مصر وأمره أن يدخل المدينة ومكة بالصلاح والتبعية ويفعل مثل ذلك بعرفات، وفعل ذلك ووافى عرفات بالأعلام والطبول والسلاح.

وفي هذه السنة دخل المدعي البصرة ونهب وحرق المسجد الجامع وتوجه إليه رجل من الأتراك يقال له: محمد المولد فلما بلغه الخبر انصرف ولم يلقه.

وفي هذه السنة وقعت مصيبة بفلسطين بين لخم وجذام فتحاربوا حرباً أخذت من الفريقين. وفيها حج بالناس الفضل بن العباس بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد. وأخرج أحمد بن محمد المدبر من الفسطاط متوجهاً إلى الشامات في المحرم سنة ٢٥٨هـ، فقام بالشامات وقصد مدينة دمياط وتولى أعمال الخراج.

وفي هذه السنة دخل محمد المولد التركي البصرة وأخرج المدعي إلى آل أبي طالب وأصحابه عنها ورجع قوم فلم يجدوا منزلاً يسكن.

وفيها وقع الوباء بالعراق فمات خلق من الخلق وكان الرجل يخرج من منزله فيموت قبل أن ينصرف، فيقال إنه مات ببغداد في يوم واحد اثنا عشر ألف إنسان.

وفيها زاد أبو أيوب أحمد بن محمد، ابن أخت الوزير عامل خراج مصر، في المسجد الجامع بمصر في آخر المسجد.

وفيها توجه أبو أحمد بن المتوكل على الله إلى المدعي إلى آل أبي طالب الخارج بالبصرة في جمع كثيف وكان العسكر والزاد والسلاح في السفن فوقعت النار في السفن، فاحترقت وانصرف أبو محمد راجعاً.

وفيها أخذ أحمد بن طولون على الجند والشاكرية والموالي وساير الناس البيعة لنفسه على أن يعادوا من عاداه ويوالوا من والاه ويحاربوا من حاربه من الناس جميعاً.

وفيها بويع لأحمد بن الموفق بن المتوكل ولقب بالمعتضد بولاية العهد، وصير إليه أعمال يارجوخ من مصر وغيرها فدعي له على منابر مصر.

وحج الناس الفضل بن العباس، ونال أهل البادية زلازل ورياح وظلمة وخاف الناس ممن كان حول المدينة من بني سليم وبني هلال وغيرهم من بطون قيس وسائر أهل البلد فهربوا إلى المدينة وإلى مكة يستجيرون بقبر رسول الله ﷺ وبالكعبة، وأحضروا متاعاً من متاع الحاج الذين قطعوا عليه الطريق، وذكروا أنه هلك منهم خلق عظيم في البادية وكان ذلك في سنة ٢٥٩هـ، وفيها تغير ماء نيل مصر حتى صار يضرب إلى الصفرة وأقام على هذه الحال أياماً ثم رجع إلى ما كان عليه. (اليعقوبي - التاريخ، النجف ج٣، ص ٢٢٨-٢٣٢)